

قال أبو الوليد الباجي:

إذا كنتُ أعلمُ علماً يقيناً بأنَّ جميعَ حياتي كساعةُ
فلمَ لا أكونُ ضئيلاً بها وأجعلُها في صلاحٍ وطاعةُ

«ترتيب المدارك: ٨/ ١٢٥»

المَشَوِّقُ
إِلَى الْقِرَاءَةِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ

③ دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع ، ١٤٢٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمران ، علي بن محمد

المشوق إلى القراءة وطلب العلم . / علي بن محمد العمران - مكة

المكرمة ، ١٤٢٥ هـ .

١٤٨ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ١ - ٢٣ - ٦٤٥ - ٩٩٦٠

١ - القراءة أ. العنوان

١٤٢٥/٥٢٤٠

ديوي ٠٢٨

رقم الإيداع ، ١٤٢٥/٥٢٤٠

ردمك : ١ - ٢٣ - ٦٤٥ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٠

الطبعة الثانية ١٤٢٢

الطبعة الثالثة ١٤٢٥

دَارُ عَالَمِ الْفَوَائِدِ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

مكة المكرمة : ص . ب ٢٩٢٨

هاتف ٥٥٠٥٣٠٥ فاكس ٥٥٤٢٣٠٩

الصف والإخراج دَارُ عَالَمِ الْفَوَائِدِ للنشر والتوزيع

المسوق

إلى القراءة وطلب العلم

تأليف
علي بن محمد العمران

كتاب عالم الفوائد
للنشر والتوزيع

مقدمة الطبعة الثانية

أ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، اللهم صلِّ وسلِّم على محمد عبدك ورسولك.

أما بعد؛ فلا أظن قارئ هذا الكتاب قد فرغ من قراءته إلا وهو يردّد بصدق قول العلامة المقرئ - رحمه الله -^(١):

وقد أعرضت نفسي عن اللهو جُملةً ومَلَّت لقاء الناس حتَّى وإن جلُّوا
وصارَ - بحمد الله - شُغلي وشاغلي فوائد علمٍ لستُ من شُغْلِها أُخلو
فطوراً يراعي كاتبٌ لفوائدٍ بصحَّتْها قد جاءنا العقلُ والنقلُ
وآونةً للعلمِ صدريَ جامعٌ فتزكو به نفسي وعن همِّها تسَلُّو

وقد لقي الكتاب - بحمد الله تعالى - في طبعته الأولى قبولا حسناً، وهذه طبعته الثانية لا تزيد عن الأولى إلا بتصحيح ما لا بدَّ من تصحيحه من خطأ أو نحوه، وإلا بزيادات قليلة في الصفحات الآتية: (٣٢، ٧٦، ٨٧)، ولم أحب أن أتوسَّع في الزيادات لما اشترطته على نفسي من الاختصار، أسألُ الله - تعالى - أن ينفع بهذه الطبعة كما نفعَ بسابقتها.

والحمد لله وحده.

وكتب

علي بن محمد العمران

١٤٢٢/١/١٦ هـ

(١) في كتابه: «دُرر العقود الفريدة»: (١/ ٥٠).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذه رسالة تُجَلِّي لنا جانبًا مهمًّا من جوانب النموِّ العلمي، ورافدًا أساسًا من روافد التوسُّع المعرفي.

تكشف لنا هذه الرسالة عن صورةٍ مُشرِّقةٍ من حياة العلماء، ضربوا فيها أروع الأمثلة، وأصدق البراهين، وأجلى الدلالات على حبهم للعلم، وشغفهم به، وتفانيهم من أجل تحصيله وطلبه.

هذه الأمثلة والبراهين كثيرة ومتنوعة، اصطفت منها مايتعلَّق بحياة العلماء مع الكتب، في اهتمامهم بها قراءة وإقراءً، في تحصيلهم لها شراءً واستنساخًا، في شغفهم بها، وحرصهم عليها، واصطحابها معهم سَفَرًا وحضرًا، في مواقف عجيبة، وصورٍ مُعْجِبة، ولا عجب!!.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وأما عُشَّاق العلم فأعظم شغفًا به وعِشْقًا له من كلِّ عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُهُ عنه أجملُ صورةٍ من البشر»^(١) اهـ.

وقال - أيضًا -: «ولو صُوِّر العلمُ صورةً؛ لكانت أجملَ من صورة

(١) «روضة المحبين»: (ص/٦٩). وانظر فصلًا في «لذة العلم» في «أبجد العلوم»: (١/١٠٠) للقنوجي. و«مداواة النفوس» لابن حزم.

الشمس والقمر»^(١) اهـ.

أقول: فكيف يُلام إذا من عَشِقَ العلمَ، وكيف يُتَعَجَّب ممن كَلَفَ به، وانقطعَ له!!؟.

- ١ -

غير خافٍ على عامة الناس ما للعلم من سُمُو المكانة وشرف المنزلة، وما لحامله من ذلك، ويزداد كلُّ ذلك تَبَعًا لشرف المعلوم، والتوسع فيه، وظهور أثره على حامله.

ولما كان فضل العلم بهذا الظهور، لم يكن بنا حاجة إلى إقامة البراهين، ونَصَب الأدلة، على الإشادة به، وإظهار محاسنه، فكلُّ ذلك مجموعٌ في كتب كثيرة مفردة^(٢).

(١) المصدر نفسه: (ص/٢٠١).

(٢) انظر فصلاً طويلاً حفيلاً في (العلم وفضله وشرفه، وبيان عموم الحاجة إليه، وتوقُّف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه) للإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «مفتاح دار السعادة»: (١/٢١٩ - ٥٥٥، ٢/٣ - ٣٩٨).

أقول: وفي بيان العلم وفضله مصنفات مفردة منها:

«فضل العلم والعلماء» لحميد بن زياد (٣١٠)، «فرض طلب العلم» للأجري (٣٦٠)، «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٤٦٣)، «الحث على حفظ العلم» للعسكري، وابن عساكر، وابن الجوزي، و«جواهر العقدين في فضل الشرفين» للسمهودي (٩٠٩)، و«التنبيه والإعلام بفضل العلم والأعلام» للعميري (١١٧٨)، و«تفضيل شرف العلم على شرف النسب» لمحمد سعيد صقر (١١٩٤)، و«إرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب» لمحمد بن مانع (١٣٨٥).

- ٢ -

كان الباعث لي على تصنيف هذا الكتاب وتأليفه أمران:

الأول: ما رأيته - ورآه غيري - من عُرُوف كثير من (طلبة العلم!!)
- لا سواهم - عن إيلاء كتب العلم مكانتها، وإنزالها منزلتها، فاشتغلوا
عنها بغيرها.

* فجماعة منهم ظنوا أنهم قد بلغوا من العلم مالا يُحتاج معه إلى
مزيد قراءة واطلاع، فقتنعوا بما أحرزوه من ألقاب!! وشهادات!!
ومناصب ووجاهة!!.

فما هو إلا أن حاز «اللقب» حتى أعرض عن الطَّلَب، وقد كان
يدّعي العكس، يقول: دعوني أضع همَّ «اللقب» ثم أُمعِن في الطلب!
فما باله انقلب!!

وياليتَه وقف هنا فحسب؛ لكنه اتكأ على أريكته وعَرَّض الوساد،
وتنمَّر على العباد، وانسلخ من طلب العلم إلى طلب الدنيا، فأصبح
«اللقب» حينئذٍ خديعة يخدع بها المرء نفسه وغيره.

ولو كانت الألقاب تؤخذ عن أهلية واستحقاق، لهان الخطب وانقطع
الخطاب، لكن العكس هو الواقع، فأصبحت أحياناً تُباع وتُشترى، وأحياناً
تُعطى لبحوث هزيلة، وأحياناً لبحوث منقولة عن غيرها، وهكذا في سلسلة
نكدة من التخاذل العلمي، فهل يوثق بعد هذا بشهادة أو لقب^(١)؟!

(١) لكن بعض الصالحين لم يستطع التخلُّص من ضغط الواقع في اعتبار هذه (الألقاب
السحرية!!) كل شيء، فمع يقينه أنها لا شيء إلا أنه - دائماً - لا يستطيع أن =

وما أصدق الشاعر محمد رضا الشَّيْبِي العراقي في قوله :

فتنةُ الناسِ - وُقِينَا الْفِتْنَا -
باطلُ الحَمْدِ ومَكْذوبُ الثَّنَا
لم تزلْ - ويحكْ يا عصرُ أَفَقْ -
عَصَرَ الْقَابِ كِبَارٍ وَكُنَى
حَكَمَ النَّاسُ عَلَى النَّاسِ بما
سمعوا عنهم وَغَضُّوا الْأَعْيُنَا
فاسْتَحَالَتْ - وَأَنَا مِنْ بَعْضِهِمْ -
أُذْنِي عَيْنًا وَعَيْنِي أُذُنًا^(١)

* وجماعة منهم قنعوا بمتابعة ماتسارع شركات الحاسوب في إنتاجه، من أقراصٍ تحوي العشرات بل المئات من الكتب في جميع الفنون! وظنوا أن هذه تُغني عن شراء الكتب واقتنائها ومطالعتها ودَرسها! وما عَلِمَ هؤلاء (أو عَلِمُوا ولكن...) أنهم قد أَسْتَسْمِنُوا ذا وَرَمٍ ونفخوا في غير ضَرَمٍ، فأنزلوا هذه الآلة (الصِّمَاء)^(٢) منزلةً ليست لها، ووطَّئوها مكانًا ما ينبغي لها، أرادوا بها - وهيئات - أن يسبقوا الرِّكَبَ، ويُحقِّقوا المسائل، ويستدرِّكوا على العلماء، أرادوا كلَّ ذلك = بِلَمْسَةٍ عَلَى زِرٍّ! فيالله العجب! وأعجبُ منه: أن ينسبوا كل ذلك الفضل

يكتب اسمه دون أن يسبقه بـ (اللقب)، وتالله لو وضع قبل اسمه ما شاء من ألقابٍ وشاراتٍ لَمَّا أغناه ذلك شيئًا! ولكنه اللقب، فمتى سُلِبَ سُلْبٌ معه كلُّ شيءٍ. وبعض هؤلاء يُعَبِّرُ بطريقةٍ أخرى، فحالما يحصل على شهادة «اللقب» إلا ويسارع بوضعها في مكان بارزٍ في مكتبته محاطة بإطار جميل، ولسان حاله يقول: لله أبي! لقد بلغتُ مرتبةَ الراسخين!!.

وكم من شهاداتٍ يَغُرُّ جمالُها وقيمتُها النَّقْشُ الذي في إطارِها

(١) انظر: «تغريب الألقاب العلمية»: (ص/٣٣).

(٢) لا يُفْهَمُ من هذا أن الحاسوب لا قيمة له ولا فائدة منه، بل له فوائد كثيرة تُقَدَّرُ بقدرها ولا تعدوا طَوْرَهَا، ولست هنا لتعدد محاسنه ولا لتبيين مزاياه!!.

مقدمة الطبعة الأولى

٩

إلى أنفسهم (متوهمين وموهمين)؛ فجَنَوْا بذلك على أنفسهم؛ إذ حَسِبُوا أنهم على شيء، وعلى العلم، وعلى الناس!!!.

الأمر الثاني - الداعي إلى تأليف الكتاب -: هو استشارة الهمم، وشَحْذ الخواطر، وتبصير طلاب العلم بما كان عليه سلفهم من العلماء والأئمة؛ في صبرهم وبذلهم في تحصيل العلم وقراءته وإقراءه.

ولا أُمْتِرَاء في أثر هذه الأمثلة الحيّة والصور الصادقة من حياة تلك الصفوة من العلماء، في شَحْذ الهمة وإيقاظها، كما لا تخفى فائدتها في التعرف على طرائق أهل العلم في القراءة والمطالعة، والاستبصار بخبراتهم وتجاربهم للوصول إلى طريقة مثلى وأسلوب يُحْتَذَى، وليس هذا من التغني بأمجاد الأجداد والركون إليها، ولكنه كشف لصفحة مطوية من تاريخنا المجيد، علّها تُسهِم في إيقاظ ما فُتِرَ من الهمم، وتُشْعِل ما خبا من العزائم، وقد قال بعضهم: «الحكايات جند من جنود الله يثبّت بها من شاء من عباده»^(١).

- ٣ -

إن الناظر في سير العلماء يَخْلُص إلى حقائق مهمة ونتائج واضحة، منها: معرفتهم بقيمة هذه الثروة الهائلة^(٢) والكنوز العظيمة، لذا فقد

(١) «أزهار الرياض»: (١/٢٢).

(٢) هي هائلة ضخمة بحق، وانظر فصلاً في بيان ذلك في «التراتب الإدارية»: (٢/٤٥٢ - ٤٦٢) للكتاني، و«الفكر السامي»: (٢/٤٨ - ٥١) للحجوي، و«لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات»: (ص/٣٩ - ٤١) للحلوجي، و«الكتاب في الحضارة الإسلامية»: (ص/١٦٩ - ٢٤٤) ليحيى الجبوري.

أولوها عنايةً فائقةً وجهودًا ضخمة، ظهرت في صورٍ عديدة مما ستكشف هذه الرسالة عن بعضه.

إن من واجبات أهل العلم اليوم: تبصير النشء بأهمية هذا التراث الذي خلفه الأجداد، فهو عَصَارة عقولهم لقرونٍ عديدة، وثمره جمعهم وسهرهم لآمادٍ مديدة.

إن من واجباتهم - أيضًا - النهوض بهذا التراث، والحفاظ على هذه التركة التي لا يُقدَّرُها قدرها إلا هم، ولا يستطيع الحفاظ عليها حقًا إلا هم.

إن الحفاظ على هذه الثروة لا يكون بمجرد رَصْفها في خزائن أنيقة، ولا بترتيبها وتزويقها وتنميقها، ولا بنشرها وتحقيقها، كلا! ليس بذلك فقط؛ لكن خير وسيلة لحفظها، وأنجع طريقة للحفاظ عليها هي: بعث الحركة العلمية وإنمائها، وإيقاظ الهمم وإعلائها، بحيث نضيف كلَّ يوم إلى صفوف القراء (والقراء حقًا) عددًا جديدًا، يعكفون عليها ويستجلون فوائدها، فبهذه الطريقة، وبها وَحْدَهَا، تنمو وتكتمل كلُّ الوسائل المساعدة (من خَزْنٍ ورَصْفٍ ونَشْرِ...)، وسيسعى طلابُ العلم ورؤّاد المعرفة حثيثًا تُجاه إنماء كلِّ ذلك بدافع ذاتي واقتناع شخصي؛ لأنهم أصبحوا ساعَتئذٍ في أمسِّ الحاجة إليها، ومن أعرف الناس بقيمتها.

فيوم كان العلماء يتنافسون في أَقْتِناء الكتب، ويتبارون في تحصيلها واستنساخها، ويعكفون على قراءتها وإقراءها (مما ستراه في هذه الرسالة) يوم كانوا كذلك؛ نَشِطَت حركةُ التأليف والنسخ، بل وجميع ضروب خدمة الكتاب^(١).

(١) انظر فصلًا في «حال ملوك المسلمين في صيانة كتب السلف» في «خزائن الكتب العربية»: (٣/ ٨٥٥ - ٨٥٧) لدي طرّازي و«فصلًا في استكثار المسلمين =

مقدمة الطبعة الأولى

١١

فإذا أوجدنا القراء وُجد معهم كلُّ شيء، وإلا فقل لي - بربك -:
ما قيمة كل تلك الوسائل ولا مستفيد ولا راغب ولا طالب؟! .

- ٤ -

إنَّ ضعفَ الهمم عن القراءة وطلب العلم كان سببًا رئيسًا في ضياع
جزءٍ ليس بالقليل من هذه الثروة، كما كان للجهل، وعدم الوعي
بقيمتها، وانتشار الحروب والفتن = آثارٌ أخرى لا يُستهان بها.

وقد أنحى الإمام ابن الجوزي^(١) (٥٩٧) - رحمه الله - باللائمة على
ضعف الهمّة في اندثار كثير من كتب العلم: قال: «كانت همم القدماء
من العلماء عُلِيَّة، تدلُّ عليها تصانيفهم، التي هي زبدة أعمارهم، إلا أن
أكثر تصانيفهم دَثُرَتْ؛ لأن همم الطلاب ضعُفت، فصاروا يطلبون
المختصرات ولا ينشطون للمطوَّلات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من
بعضها، فدَثُرَت الكتب ولم تُنسخ»^(٢) اهـ.

فإذا كان هذا هو تعليلُ ابن الجوزي في تلك الفترة، وهو يرى أبا
الوفاء ابن عقيل الحنبلي (٥١٣) صاحب كتاب «الفنون» في (٨٠٠
مجلد)، ويرى ابن الخشاب النحوي (٥٦٧) صاحب التصانيف العديدة

= من نسخ الكتب» فيه - أيضًا -: (٨٩٨/٣ - ٨٩٩).

(١) وقبله الإمام ابن جرير الطبري في خبره المشهور في تدوين التفسير والتاريخ.
وكذلك الإمام ابن عبد البر في «جامع بيان العلم»: (٢١/١)، قال وهو
يتحدّث عن دروس العلم: «وإن كان لعمري قد درّس منه الكثير بعدم
العناية، وقلة الرّعاية، والاشتغال بالدنيا، والكَلْب عليها» اهـ. ومثلهم
الواحد (٤٦٨) في مقدمة كتابه «الوجيز».

(٢) «صيد الخاطر»: (ص/٥٥٦ - ٥٥٧).

والمكتبة الضخمة، وأبا العلاء الهَمْدَانِي (٥٦٩) العلامة المتفنن، عاشق الكتب، والوزير الصالح العالم ابن هُبَيْرَة^(١) (٥٦٠) صاحب الأيادي البيضاء على العلم والعلماء، وغيرهم، فماذا نقول إذا في عصرٍ قد اجتمع فيه إلى ضعفِ الهَمَمِ، وخَوَرِ العزائم، سَيْلٌ هادر من المُلْهِيات والمشغلات عن القراءة، بل عن العلم جملةً!!.

وسنفقد المزيدَ من هذا التراث إذا نحن انسقنا أمام تلك المُلْهِيات، وشغلنا تلك الصوارف بِبَرِيقِها وبَهْرَجِها، فيالها من خسارةٍ فادحةٍ وغبنٍ عظيم!! فهل يجوزُ لطالبِ علمٍ أن يكون مُعِينًا - ولو بأقلِّ القليل - على ضياع شيءٍ من هذا التراث؟! .

كلَّا!!.

- ٥ -

قسَّمت هذه الرِّسالة إلى فصول:

- الأول: في الحثِّ على الازدياد من العلم والتبحُّر فيه.
- الثاني: حرص العلماء وشغفهم بالكتب؛ قراءةً وتحصيلًا.
- الثالث: في قراءة المطوَّلات في مجالسٍ معدودة.
- الرابع: في تَكَرُّر قراءة الكتاب الواحد المرات الكثيرة.
- الخامس: في تدريس الكتاب الواحد المرات الكثيرة.
- السَّادس: في نَسْخ الكُتُب وما تحمَّلوه في ذلك.

(١) والأربعة حنابلة - رحمهم الله تعالى -.

مقدمة الطبعة الأولى

١٣

السابع: إيقاظات وتنبهات.

ونصوص هذه الرسالة لا أعلمها مجموعةً في كتاب، ولا مدونةً في مكانٍ واحدٍ، جمعتها من بطون كتب السير والتراجم، والتاريخ والطبقات، فضمنتُ النظيرَ إلى نظيره، والقصةَ إلى أختها، بعد طولِ نظرٍ وفحصٍ، لا أقول هذا تكثراً ولا تزيّداً، لكن أقوله تحذُّثاً بالنعمة ودفعاً للظنّة، وليس قصدي استيعاب كل مايمكن أن تنطوي عليه هذه الفصول؛ إذ محاولة ذلك غير مُجدٍ ولا مطلوب^(١).

وأنا غير مُستكنفٍ ولا مُستكبرٍ عن قبول استدراك أو ملاحظة^(٢)، بل صَدْرِي أرحب لتقبُّل ذلك من ثناء مثني أو مدح مَادِح!!.

أَسْأَلُ اللَّهَ - تعالى - أن يُحَقِّقَ ما أَمَلْتُهُ من هذا الكتاب، وأن يتقبل ذلك عنده بقبولٍ حسنٍ، اللهم علِّمنا ماينفعنا، وانفعنا بما عَلَّمْتَنَا، وزِدْنَا عِلْمًا، إنك على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه.

وكتب

علي بن محمد العِمْرَان

تحريراً في ٢٠/٤/١٤٢٠هـ

مكة المكرمة، ص . ب (٢٩٢٨)

(١) أما كونه غير مُجدٍ؛ فلأنَّ استيفاء ذلك يُضاعف حجم الكتاب، فنحتاج حينئذٍ إلى مُشَوِّقٍ يُشَوِّقُنَا إلى قراءة «المشوّق»!!.

وأما كونه غير مطلوب؛ فلأن محاولة ذلك ضرب من الخيال، وسوءٌ في التدبير؛ فهل يحيط أحدٌ بكتب التاريخ ومُتعلقاته؟!.

(٢) هنا أشكر أخي الأستاذ خالدًا الزهراني؛ إذ زوّدني ببعض القصص والأخبار.

الفصل الأول

في الحث على الازدياد من العلم والتبحر فيه

في نزول أوّل آية في القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق/ ١] من الدلالات والمعاني ما لا يمكن حصره، ويفهم من قوله: ﴿أَقْرَأْ﴾ وهو فعل أمر من (قَرَأَ) الأمر الجازم الحازم بالقراءة، والحث على تعلمها وتعليمها^(١)، وفي هذه اللفظة غناء عن كلام كثير في هذا الموضوع.

* أمر النبي ﷺ بالزيادة من العلم

ثم جاء الأمر القرآني الآخر؛ لتأكيد القضية والحث على طلب المزيد من العلم، فقال الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه/ ١١٤].

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وكفى بهذا شرفاً للعلم، أن أمر نبيّه أن يسأله المزيد منه»^(٢) اهـ.

وقال ابن كثير في «تفسيره»^(٣): «أي: زدني منك علماً، قال ابن عيّنة

(١) انظر: «شواهد في الاعجاز القرآني»: (ص/ ٨٤) للأستاذ عودة أبو عودة.

(٢) «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٢٢٣ - ٢٢٤).

(٣) (٣/ ١٧٥)، وانظر: «روح المعاني»: (١٦/ ٢٦٩) للآلوسي.

البحث على الإزدياد من العلم

١٦

- رحمه الله -: ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله - عز وجل - اهـ.

وقد قيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم^(١).

* خبر نبي الله موسى ﷺ في طلب الزيادة منه

والعالم كلما ازداد علمًا، ازداد معرفة بفضل العلم ومنزلته ومكانته، وبمقدار ما فاته منه ويفوت = فتاقت نفسه - حينئذٍ - إلى المزيد منه، ولو لقي في ذلك الألاقي.

ففي خبر كليم الله موسى ﷺ الذي قصه القرآن الكريم في سورة الكهف الآيات (٦٠ - ٨٢)، وذكره النبي ﷺ لأصحابه كما في «الصحيحين»^(٢) وفيه أن النبي ﷺ قال : «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال : هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى : لا . فأوحى الله إلى موسى : بلى، عبدا خضر»^(٣)، فسأل موسى السبيل إليه . . . الحديث.

قال أبو العباس القرطبي^(٤) : «وفيه من الفقه : رحلة العالم في طلب

(١) انظر : «الكشاف» : (٤٤٨/٢)، و«تفسير الخازن» : (٢٨٢/٣)، و«فتح الباري» : (١٧٠/١)، و«محاسن التأويل» : (١٩٧/١١).

فائدة : قال الزمخشري : «هذه الآية متضمنة للتواضع لله والشكر له، عندما علم من ترتيب التعلم، أي : علمتني يارب لطيفة في باب التعلم وأدبًا جميلًا ما كان عندي، فزِدني علمًا إلى علم، فإن لك في كل شيء حكمة وعلمًا» اهـ. «الكشاف» : (٤٤٨/٢)، وعنه مابعده من التفاسير.

(٢) البخاري رقم (٧٤)، ومسلم رقم (٢٣٨٠) من حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه - .

(٣) بفتح أوله وكسر الثاني، أو بكسر أوله وإسكان الثاني، وجهان.

(٤) «المفهم» : (١٩٦/٦)، وانظر «مفتاح دار السعادة» : (٤٨٧/١ - ٤٨٨)، ففيه =

البحث على الإزدياد من العلم

١٧

الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخدام والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء، وإن بُعدت أقطارهم، وذلك كان دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت في العلوم لهم أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذكر والأجر أفضل الأقسام اهـ.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»^(١): «وموسى - عليه الصلاة والسلام - لم يمنعه بلوغه من السيادة المحل الأعلى من طلب العلم وركوب البحر لأجله...» [فيه - أي الحديث -]: ركوب البحر في طلب العلم، بل في طلب الاستكثار منه اهـ.

وذكر الماوردي^(٢) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لو كان أحدٌ يكتفي من العلم لاكتفى منه موسى - على نبينا وعليه السلام - لمّا قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف/ ٦٦].

أقول: فهذه حال الأنبياء، والعلماء ورثتهم، ولم يرثوا منهم إلا العلم، فطلبوه وحصلوه وتعبوا في سبيله، فأخذوا بحظ وافٍ.

* شيء من حال الصحابة في الازدياد منه

لقد لحظ الصحابة - رضي الله عنهم - ما كان عليه قدوتهم ﷺ من

= كلام نفيس لولا طوله نقلته.

(١) (١/٢٠٢، ٢٠٤)، وانظر «عمدة القاري»: (٢/٦٤)، و«إكمال المعلم»: (٧/٣٦٧).

(٢) في «أدب الدنيا والدين»: (ص/١٢٤)، ونسبه في «البيان والتبيين»: (١/٢٥٨) إلى قتادة.

الحث على الإزدياد من العلم

١٨

حِرْصٍ على العلم، فاقتفوا أثره، وضربوا أمثلة نادرة في الحرص عليه والتفاني من أجله.

فهذا عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - كان إذا تلى قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ قال: «اللهم زدني علماً وإيماناً و يقيناً»^(١).

وقد بلغ - رضي الله عنه - من شدة اجتهاده وطلبه أن قال: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورةً من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آيةً من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه»^(٢).

وهذا أبو هريرة - رضي الله عنه - حافظ الصحابة يصفه عليه السلام بالحرص على العلم، فقد عَقَدَ البخاريُّ في «صحيحه»^(٣): (بابُ الحرصِ على الحديث) وذكر فيه حديثَ أبي هريرة - رضي الله عنه - وسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عن أسعد الناس بشفاعته؟ وقوله له: «لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوَّلَ منك، لِمَا رأيتُ من حِرْصِكَ على الحديث...».

قال البدر العيني في «عمدة القاري»^(٤): «فيه الحرص على العلم والخير، فإن الحريص يبلغ بحرصه إلى البحث عن الغوامض ودقيق المعاني؛ لأن الظواهر يستوي الناس في السؤال عنها؛ لاعتراضها

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد كما في «الدر المنثور»: (٥٥٣/٤).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٠٠٢)، ومسلم رقم (٢٤٦٣).

(٣) «الفتح»: (٢٣٣/١).

(٤) (١٢٨/٢).

الحث على الإزدياد من العلم

١٩

أفكارهم، وما لُطِفَ من المعاني لا يسأل عنها إلا الراسخ فيكون ذلك سبباً للفائدة، ويترتب عليها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» اهـ.

وهذا جابر بن عبدالله الأنصاري - رضي الله عنهما - يرحل من المدينة النبوية إلى مصر - مَسِيرَةَ شهر على البعير - من أجل سماع حديث واحد، خاف أن يموت ولم يَسْمَعْهُ^(١).

وأخرج الدارمي^(٢) بسند صحيح عن عبدالله بن بريدة: «أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رحلَ إلى فضالة بن عُبيد وهو بمصر، فقدم عليه، فقال: أما إني لم آتِكَ زائراً، ولكن سمعتُ أنا وأنتَ حديثاً من رسول الله ﷺ رجوتُ أن يكون عندك منه علم...»

وعدّد الحافظ في «الفتح»: (٢١٠/١) أمثلة ثم قال: «وتتبع ذلك يكثر».

(١) أخرجه أحمد: (٤٩٥/٣)، والبخاري في «الأدب المفرد»: (ص/٢٨٧)، وعَلَّقَهُ مجزوماً به في «الصحيح» (الفتح): (٢٠٨/١)، والحاكم: (٤٢٧/٢)، والخطيب في «الرحلة»: (ص/١٠٩ - ١١٤) من طريق عبدالله ابن محمد بن عقيل عن جابر به، وابن عقيل مُتَكَلِّم فيه من قِبَل حفظه. وله طريق أخرى عن الحجاج بن دينار، عن محمد بن المنكدر، عن جابر به. أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين»: (١٠٤/١)، وتَمَّام في «الفوائد» رقم (٩٢٨).

قال الحافظ في «الفتح»: (٢٠٩/١): «إسناده صحيح». وله طريق ثالثة عن أبي الجارود العباسي عن جابر. أخرجه الخطيب في «الرحلة»: (ص/١١٥)، وضعفه الحافظ في «الفتح».

(٢) «السنن»: (١٥١/١)، والخطيب في «الرحلة»: (ص/١٢٤ - ١٢٥) كلاهما من طريق يزيد بن هارون عن الجريري به.

وقد ألّف الخطيبُ كتابه «الرحلة في طلب الحديث» فيمن رحل في طلب حديث واحد.

* شيء مما جاء عن السلف

وهكذا كان ذلك الجيل الفريد قدوة لمن بعدهم، في عكوفهم على العلم، وطلبهم للاستزادة منه، فاحتذوا حذوهم، واقتفوا أثرهم، وشواهد ذلك ماثلة:

فهؤلاء تلاميذ ابن مسعود - رضي الله عنه - في الكوفة - علقمة والأسود وغيرهم - كانوا إذا سمعوا الحديث والعلم من شيخهم، لم يشف ذلك مافي صدورهم من النهمة، فيرحلون إلى المدينة طلبًا للعلو، وزيادة في الثبت، وإمعانًا في الطلب والتلقي من أفواه العلماء^(١).

قال يحيى بن سعيد القطان^(٢): «مارأيتُ أحفظَ منه (أي: سفيان الثوري ١٦١) كنتُ إذا سألتَه عن مسألةٍ أو عن حديثٍ ليس عنده؛ اشتدَّ عليه.

فلم يقف العلماء في طلبهم عند حدٍّ محدود، بل استوعبوا قدر الاستطاعة والطاقة، فضربوا بذلك أعجبَ الأمثلة، وأغربَ السَّير.

قال الأعمش^(٣): «كان مجاهد (١٠٤) لا يسمع بأعجوبةٍ إلا ذهب لينظر إليها! ذهب إلى حَضْرَمَوْت ليرى بئرَ برهوت، وذهب إلى بابل

(١) وانظر نماذج أخرى في كتاب الخطيب السالف، و«سنن الدارمي»: (١/١٤٩ - ١٥١)، و«فتح الباري»: (١/٢٣١ - ٢٣٢).

(٢) «تذكرة الحفاظ»: (١/٢٠٤).

(٣) المصدر نفسه: (١/٦٢).

البحث على الإزدياء من العلم

٢١

وعليه وإل، فقال له مجاهد: تعرض عليَّ هاروت وماروت...؟.

وذكر ابن حزم^(١) عن يحيى بن مجاهد الزاهد قال: كنتُ آخذ من كلِّ علم طرفاً، فإن سماع الإنسان قومًا يتحدثون وهو لا يدري مايقولون غُمة عظيمة، أو كلامًا هذا معناه.

قال أبو محمد (أي ابن حزم): «ولقد صدق - رحمه الله -».

وهذا الإمام الدارقطني (٣٨٥) - رحمه الله - وهو من هو تضرعاً في علوم الحديث والفقه والقراءات، إلا أنه كان حُفَظَةً للأخبار والنوادر والحكايات.

قال الأزهري^(٢): كان الدارقطني ذكياً، إذا ذكر شيئاً من العلم (أي نوع كان) وجد عنده منه نصيب وإفر، لقد حدثني محمد بن طلحة النعالي أنه حضر مع الدارقطني دعوةً، فجرى ذكر الأكلة، فاندفع الدارقطني يورد نوادر الأكلة حتى قطع أكثر ليلته بذلك.

وقال الإمام محمد بن عبد الباقي الأنصاري (٥٣٥) عن نفسه^(٣): «حفظتُ القرآن ولي سبع سنين، وما من علم في عالم الله إلا وقد نظرتُ فيه، وحصلتُ منه بعضه أو كله».

ولما أُسِر في أيدي الروم قيّدوه، وجعلوا الغل في عنقه، وأرادوا منه أن ينطق بكلمة الكفر فلم يفعل، وتعلّم منهم الخطّ الرومي.

(١) «رسائل ابن حزم الأندلسي»: (٧٢/٤) رسالة مراتب العلوم.

(٢) «تذكرة الحفاظ»: (٩٩٣/٣).

(٣) «الذيل على طبقات الحنابلة»: (١٩٤/١).

الحث على الإزدياد من العلم

٢٢

أقول: وما سيرة ابن حزم (٤٥٦)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨)، وابن الوزير (٨٤٠) عَنَّا ببعيد، وما خلفوه من تراث خير حافظ على ذلك وشهيد.

وخذ مثالا للدلالة على سعة اطلاع شيخ الإسلام، قال الصفدي^(١) - تلميذه -: «أخبرني المولى علاء الدين علي بن الآمدي - وهو من كبار كُتَّاب الحساب - قال: دخلتُ يوماً إليه أنا والشمس النفيس عامل بيت المال - ولم يكن في وقته أكتب منه - فأخذ الشيخ تقي الدين يسأله عن الارتفاع وعما بين الفذلكة واستقرار الجملة من الأبواب، وعن الفذلكة الثانية وخَصْمُها، وعن أعمال الاستحقاق، وعن الختم والتوالي، وما يُطلب من العامل. وهو يجيبه عن البعض، ويسكت عن البعض، ويسأله عن تعليل ذلك؟ إلى أن أوضح له ذلك وعَلَّله، قال: فلمَّا خرجنا من عنده قال لي النفيس: والله تعلَّمتُ اليومَ منه ما لا كنت أتعلمه. انتهى ما ذكره علاء الدين».

واستمع إلى هذا الوصف العجيب، الذي يُوقِّفُك على سعة اطلاع شيخ الإسلام، ذكر السخاوي في «الجواهر والدرر»^(٢) عن القاضي شمس الدين بن الديرى يقول: «سمعتُ الشيخ علاء الدين البسطامي - بيت المقدس - يقول وقد سأله: هل رأيت الشيخ تقي الدين ابن تيمية؟ فقال: نعم. قلت: كيف كانت صِفَتُهُ؟ فقال:

هل رأيت قُبَّةَ الصَّخْرَةِ؟ قلت: نعم. قال: كان كُفَّةَ الصَّخْرَةِ مُلَأَ كُتُبًا لها لسان ينطق!!» اهـ.

(١) في «الوافي» انظر: «الجامع لسيرة شيخ الإسلام»: (ص/ ٣١٠).

(٢) (١١٧/١).

البحث على الإنترنت من العلم

٢٣

ولا ريب أن هذا التنوع المعرفي لم يتأت من فراغ وبطاله؛ ولكنه جُمع بطول السَّهر، واغتنام العمر، ومنادمة الكتاب والاستغناء به عن الصَّحاب والأحباب.

* علماء يعرفون علومًا لا يعرفها أهل عصرهم

وإن تعجب فعجب ما وجدته في تراجم بعض العلماء، وما ذكر من سعة اطلاعهم وتنوع معارفهم، بل تصريح جماعة منهم بمعرفتهم لعلوم لا يعرفها أهل عصرهم، بل لا يعرفون أسماءها!! وإليك ما وجدت:

١ - كان ابن الخشَّاب النحوي الحنبلي ت (٥٦٧) يقول: إني متقنٌ في ثمانية علوم، مايسألني أحدٌ عن علم منها، ولا أجد لها أهلاً!!^(١).

٢ - وكان أبو البقاء السُّبكي ت (٧٧٧) يقول: أعرف عشرين علمًا، لم يسألني عنها بالقاهرة أحد^(٢)!!.

٣ - وقال محمد بن أبي بكر بن جماعة ت (٨١٩): أعرف خمسة عشر علمًا، لا يعرف علماء عصري أسماءها!!^(٣).

٤ - ويروى أن محمد بن أحمد بن عثمان بن عليم المالكي ت (٨٤٢) قال: أعرف عشرين علمًا ما سئلتُ عن مسألةٍ منها!!^(٤).

٥ - وكان أحمد بُو نافع الفاسي ت (١٢٦٠) يقول: عندي أربعة

(١) «الذيل على طبقات الحنابلة»: (٣١٧/١).

(٢) «درّة الحِجَال»: (١٣٢/٢).

(٣) «البدر الطالع»: (١٤٨/٢).

(٤) «البدر الطالع»: (١١٣/٢)، وكان مع هذا ربما احتاج فيبيع بعض نفائس كتبه!.

وعشرون علماً، لم يسألني عنها أحداً!!^(١).

٦ - وفي ترجمة أبي الطيب عبدالمنعم الكندي ت (٤٣٥)، حكى بعضهم أنه دخل عليه؛ فوجدَه ينظر في اثني عشر علماً، وكان له حظ من الحساب والهندسة والعلوم القديمة^(٢).

٧ - وانظر مذكره الجبرتي المؤرخ^(٣) عن والده العلامة حسن الجبرتي الكبير ت (١١٨٨) من تفنُّنه في علوم الشرع، ثم اعتكافه عشر سنوات (١١٤٤ - ١١٥٤) لدراسة (العلوم التجريبية) من الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كلها؛ حتى النجارة والخراطة والحداثة والسِّمكرة والتجليد والنقش والموازين، حتى صار بيته زاخراً بكل أداة في صناعة وكل آلة...

فتزوّد من العلم والحق بالركب.

قال الماوردي في «أدب الدنيا والدين»^(٤) - وهو يرشد الطالب - :
«ولا يَقْنَع من العلم بما أدرك؛ لأن القناعة فيه زهدٌ، والزُّهد فيه تركٌ،

(١) «فهرس الفهارس»: (١/ ١٢٤).

(٢) «ترتيب المدارك»: (٨/ ٦٧). و«معالم الإيمان»: (٣/ ١٨٤).

(٣) «تاريخ الجبرتي»: (١/ ٣٩٧)، وانظر: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: (ص/ ٨٢ - ٨٥) للعلامة محمود شاكر - رحمه الله - وهو مهم.

وذكر أبو المواهب الحنبلي في «مشيخته»: (ص/ ٨٩) في ترجمة شيخه أيوب ابن أحمد الحنفي الخلوتي ت (١٠٧١) أنه كان يقول: أعرف ثمانين علماً!!.

أقول: الظاهر أن هذه (الثمانين) من علوم أهل التصوّف (العلوم الباطنة) التي هي عَيْنُ الجهل بالله وشرعه!!.

(٤) (ص/ ١٢٥).

الحث على الإزدياد من العلم

٢٥

والتركُّ له جهلاً! .

وقد قال بعض الحكماء: عليك بالعلم والإكثار منه؛ فإن قليله أشبه شيءٍ بقليل الخير، وكثيره أشبه شيءٍ بكثيره، ولن يعيب الخير إلا القلة، فأما كثرته فإنها أُمْنِيَّةٌ اهـ.

ومن فوائد الاستمرار في طلبه ودوام التزيد منه ما ذكره ابن الجوزي في «صيد الخاطر»^(١) قال: «أفضل الأشياء التزيد من العلم، فإنه من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافياً استبدَّ برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعاً من الاستفادة. والمذاكرة تبين له خطأه...».

* * *

(١) (ص/١٥٨).

وأنشد بعضهم في طلب الاستزادة من العلم، وعدم الاقتصار على فنٍّ:
 احرص على كلِّ علمٍ تبلغ الأملا ولا تواصل لعلمٍ واحدٍ كسلا
 النحلُ لما رَعَتْ من كلِّ فاكهةٍ أبدت لنا الجوهريين: الشمعَ والعسلاً
 الشمعُ بالليل نورٌ يُستضاء به والشهدُ يُبْري بإذن الباريء العِلاًلا
 من «درة الحجال»: (٤٩/٣).

الاستزادة من العلم... حتى في ساعة الاحتضار

ساعة الاحتضار لا يمكن لأحد أن يصفَ حقيقتها أو يصلَ إلى كُنْهها، لكن الكلُّ يعلم أنها ساعة رهيبة ولحظة مُذهِلة، إنها ساعة الانتقال والتحول من الدنيا إلى الآخرة، من الحياة إلى الموت، هل هناك ساعة في الدنيا أَرهَب من هذه؟! هل هناك ساعة في الدنيا أشد حرجًا وأكثر شغلًا منها؟! كلا.

فما بالك بأناس في هذه (الساعة وفي هذه اللحظة) يتذكرون العلم، ويقيدون الفوائد، ويحرصون على ذلك كله، كأقوى ما يكونون صِحَّةً، وكأشد ما يكونون نَشَاطًا!! نعم هذا مما حفظه لنا التاريخ وسطرته الكتب، فثبت وصحَّ ليبقى عِبْرَةً وَعِظَةً لِلْخَالِفِ، وحاديًا يتعلل به الطالب.

وسرُّ قدرتهم على ذلك، شِدَّةُ النَّهْمَةِ، وسموُّ الهمة.

قال العلامة ابن الجوزي^(١):

لي همةٌ في العلم ما إن مثلها وهي التي جَنَتِ النُّحُولُ هي التي
خُلِقَتْ من العِلْق العظيم إلى المُنَى دُعِيت إلى نَيْل الكمالِ فَلَبَّتِ
وهذا مصداق خبر النبي ﷺ: «مَنْهُومانِ لا يَشْبَعَانِ؛ طالبُ عِلْمٍ

(١) انظر: «ذيل الروضتين»: (ص/ ٢٥)، و«السير»: (٣٧٩/ ٢١)، في قصيدة له.

الحث على الإزدياد من العلم

٢٧

وطالبُ دُنْيَا»^(١).

ولما سُئِلَ الإمام أحمد: إلى متى تطلب العلم؟ قال: من المحبرة إلى المقبرة.

فإليك ما وجدنا من خبرهم في ذلك:

(١) هذا الحديث جاء من رواية جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - وهم: أنس، وابن عباس مرفوعاً وموقوفاً، وابن مسعود، وعائشة، وأبو سعيد الخدري، وابن عمر. وجاء - أيضاً - من مرسل الحسن، وموقوفاً على كعب الأحبار. أحسنها من رواية أنس وابن عباس، فالأول أخرجه الحاكم: (٩٢/١)، والبيهقي في «الشعب» و«المدخل» - كما في «المقاصد: ٤٣٤» - وابن عساكر في «تاريخه»: (مخطوط) من طريق أبي عوانة، عن قتادة، عن أنس به. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولم أجد له علة» ووافقه الذهبي.

وحديث ابن عباس أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده» - كما في «المطالب العالية»: (٣/٣٢١) - وأبو خيثمة في «العلم» رقم (١٤١)، والبزار (الكشف: ٩٥/١)، والطبراني في «الكبير»: (١١/٧٦ - ٧٧) رقم (١١٠٩٥)، و«الأوسط»: (٦/٣١٣)، وأحمد في «الزهد»: (ص/٢١٥)، والعسكري في «الحث على حفظ العلم»: كما في «المقاصد»، وابن الجوزي في «العلل»: (٩٤/١). كلهم من طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد (في الزهد، وعلل ابن الجوزي: عن طاووس، وفي البزار: على الشك عن طاووس أو مجاهد) عن ابن عباس - وأحسبه قد رفعه - عن النبي ﷺ بنحوه.

وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف الحديث، وبه أعلم الهيثمي في «المجمع»: (١/١٤٠) والحافظ في «المطالب»: (٣/٣٢١).

وأخرجه الدارمي: (١/١٠٨) من طريق إسماعيل بن أبان عن عبدالله بن إدريس عن ليث عن طاووس عن ابن عباس موقوفاً.

* خبر أبي يوسف القاضي (١٨٢)

ذكر القرشي في «الجواهر المضية»^(١)، والمولى تقي الدين التميمي في «الطبقات السنية»^(٢) في ترجمة إبراهيم بن الجراح التميمي مولاهم - تلميذ أبي يوسف وآخر من روى عنه - قال: «أتيت أعوده، فوجدته مغمى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم! أيُّهما أفضل في رمي الجمار، أن يرمى الرجل راجلاً أو راكباً؟

فقلت: راكباً. فقال: أخطأت!.

قلت: ماشياً. قال: أخطأت!.

قلت: قل فيها - يرضى الله عنك -.

قال: أما ما يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه راجلاً، وأما ما كان لا يوقف عنده، فالأفضل أن يرميه راكباً^(٣).

ثم قمت من عنده، فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات - رحمه الله تعالى -.

* خبر أبي زرعة الرازي (٢٦٦)

قال ابن أبي حاتم في «تقدمة الجرح والتعديل»^(٤): سمعت أبي

(١) (٧٦/١).

(٢) (١٩٠/١ - ١٩١) ولم يرد فيه جوابه الثاني: «قلت: ماشياً...».

(٣) انظر «المجموع»: (١٦٨/٨)، و«أضواء البيان»: (٣٠٨/٥) وقال: «وأظهر

الآقوال في المسألة هو الاقتداء بالنبي ﷺ، وهو قد رمى جمرة العقبة راكباً،

ورمى أيام التشريق ماشياً ذهاباً وإياباً والله تعالى أعلم» اهـ.

(٤) (ص/٣٤٥).

الحث على الإزدياد من العلم

٢٩

يقول: مات أبو زُرعة مطعونًا مبطونًا يعرق جبينه في النزع، فقلت لمحمد بن مسلم (ابن وارة): ماتحفظ في تلقين الموتى: لا إله إلا الله؟ فقال محمد بن مسلم: يروى عن معاذ بن جبل.

فمن قبل أن يَسْتَم رفع أبو زُرعة رأسه وهو في النزع، فقال: روى عبد الحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرة، عن معاذ عن النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة».

فصار البيت ضجةً ببكاء من حضر.

* خبر أبي حاتم الرازي (٢٧٧)

قال ابنه عبدالرحمن في «تقدمة الجرح والتعديل»^(١): «حضرتُ أبي - رحمه الله - وكان في النزع وأنا لا أعلم، فسألته عن عُقبة بن عبدالغافر، يروي عن النبي ﷺ، له صحبة؟ فقال برأسه: لا، فلم أقنع منه، فقلت: فهمتَ عني؟ له صحبة؟ قال: هو تابعي.

قلت (ابن أبي حاتم): فكان سيد عمله معرفة الحديث، وناقلة الأخبار، فكان في عمره يُقْتَبَس منه ذلك، فأراد الله أن يُظهر عند وفاته ما كان عليه في حياته» اهـ.

* خبر ابن جرير الطبري (٣١٠)

قال المعافى النَّهْرَوَانِي في «الجلس الصالح»^(٢): «وحكى لي بعض بني الفرات، عن رجلٍ منهم أو من غيرهم: أنه كان بحضرة أبي جعفر

(١) (ص/٣٦٧).

(٢) (٢٢٢/٣).

البحث على الإنترنت من العلم

٣٠

الطبري - رحمه الله - قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقلّ منها، فذكر له هذا الدعاء^(١)، عن جعفر بن محمد - عليهما السلام - فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبها، فقل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى يموت» اهـ.

* خبر ابن سعدون (٣٥٢)

ذكر القاضي عياض في «ترتيب المدارك»^(٢) في ترجمة أبي بكر محمد بن وسيم بن سعدون الطليطلي أنه كان رأساً في كل فن، مُتَقَدِّماً فيه... قال: «ودخل عليه - وهو في النزع - بعض أصحابه، فناداه، فلم يجبه، فقال الآخر: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا/ ٥٤].

فقال له أبو بكر حين ذلك: نزلت في الكفار، وفيها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾^(٣).

* خبر مسرّة الحضرمي (٣٧٣)

وذكر عياض في «المدارك»^(٤) - أيضاً - في ترجمة مسرّة بن مسلم الحضرمي ت (٣٧٣) - وكان من أهل العلم والزهد التام - أنه لما احتضر ابتداء القرآن، فأنتهى في (سورة طه) إلى قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه/ ٨٤]، ففاضت نفسه.

(١) وهو قوله: «يا سابق الفوت، ويا سامع الصوت، ويا كاسي العظام لحماً بعد الموت...» ثم يدعو بمسألته.

(٢) (١٧٦/٦).

(٣) أنظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٥٥٢ - ٥٥٤).

(٤) (٢٧١/٦).

* خبر البيروني^(١) الفلكي (٤٤٠)

ذكر ياقوت في «إرشاد الأريب»^(٢) في ترجمة أبي الريحان محمد ابن أحمد الخوارزمي ما كان عليه من حرص في تحصيل العلوم، وتصنيف الكتب، ثم ذكر له الفقيه الولوالجي قال: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، وقد حُشِرَ نفسه، وضاق به صدره، فقال لي في تلك الحالة: كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة^(٣)؟ فقلت له - إشفافاً عليه -: أفي هذه الحالة؟! قال لي: يا هذا! أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيراً من أن أُخلِّها وأنا جاهلُ بها. فأعدت ذلك عليه وحفظ... وخرجت من عنده، وأنا في الطريق، فسمعت الصُراخ اهـ.

* خبر ابن روضة (٦٣٣)

وفي ترجمة المُسند أحمد بن عبدالله بن معطي الجزائري ت (٦٦٦) في «ذيل التقييد»^(٤) للفاسي أنه سَمِعَ «صحيح البخاري» على علي بن أبي بكر بن روضة في أربعة عشر مجلساً، وأنه قال لهم يوم الختم: اجتهدوا في إكمال هذا الكتاب، فإنه - والله - مابقي غيركم يسمعه علي، وتوفي في الليلة المتصلة بذلك اليوم.

(١) قال ياقوت: (١٧/١٨٠): «هذه النسبة معناها: البراني؛ لأن بيروناً بالفارسية معناه برّاً...» اهـ.

(٢) (١٧/١٨٢).

(٣) يعني: الجدات من قبل الأم.

(٤) (٢/٦٨).

* خبر ابن مالك صاحب الألفية (٦٧٢)

وفي كتاب «الفلاكة والمفلوكون»^(١) للدَّلَجِي في ترجمة الإمام أبي عبدالله جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك النحوي العلامة، قال: «كان كثير الإشغال»^(٢) والاشتغال، حتى أنه حفظ في اليوم الذي مات فيه خمسة شواهد!!».

* خبر الصفي الهندي (٧١٥)

ذكر الذهبي في «معجم شيوخه»^(٣) في ترجمته أنه روى له حديثين قال: «ليسا هما عندي، قرأتها عليهما ونفسه يُحشرج في الصدر، فتوفي يومئذ عفا الله عنا وعنه آمين» اهـ.

* خبر الحَجَّار (٧٣٠)

وهذا المعمّر الأعجوبة، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب الحَجَّار، مُسند الدنيا^(٤) ت (٧٣٠)؛ فقد ذكر الفاسي أن الطلاب قد قرءوا عليه في يوم موته، وله مئة سنة وعشر سنين تقريباً!!.

أقول: فاتعظ بهذه الهمم العلية، وأبكِ على تقصيرك ودُنُو هِمَّتِكَ، واستدرك ما فرط من أمرِك بالجدِّ والعمل، ومداومة الدرس والنظر، فمن سار على الدرب وصل، وعند الصباح يَحْمَدُ القومُ السَّري.

(١) (ص/٦٩).

(٢) أي: التدريس.

(٣) (٢/٢١٦).

(٤) هكذا حلَّاه الحافظ تقي الدين الفاسي في «ذيل التقييد»: (٥٨/٢ - ٦١) والخبر فيه.

البحث على الإنترنت من العلم

٣٣

وقريب من هذا ما جاء في سير بعض العلماء؛ فهم مع شدة تطلُّبهم للعلم من بادئ أمرهم حتى أوفوا فيه إلى الغاية، فاستكثروا ما شاءوا، ومع تقدُّم أعمارهم ودنوَّ آجالهم هم مع ذلك = يجدون من الرغبة في العلم، والشغف به، أكثر مما يجده الشاب اليافع المُمْتَلَى قوَّةً ونشاطًا!!.

* خبر ابن عقيل الحنبلي (٥١٣)

ففي ترجمة^(١) أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي ت (٥١٣) - رحمه الله - أنه قال: «إني لأجد من حرَّصي على العلم، وأنا في عَشْرِ الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابنُ عشرين سنة».

* خبر ابن الجوزي (٥٩٧)

وهذا العلامة المتفَنُّ، صاحب التصانيف، أبو الفرج ابن الجوزي (٥٦٧) يقرأ في آخر عمره وهو في (الثمانين) القراءات العشر على ابن الباقلاني، مع ابنه يوسف^(٢).

قال الذهبي - معلقًا -: «فانظر إلى هذه الهمة العالية!» اهـ.

* خبر مرتضى الزبيدي (١٢٠٥)

قال العلامة عبدالحى الكتَّاني في «فهرس الفهارس والأثبتات»^(٣) في

(١) في «الذيل على طبقات الحنابلة»: (١/١٤٦).

(٢) «السير»: (٢١/٣٧٧). وابن الباقلاني هو: عبدالله بن منصور بن عمران أبو بكر الرَّبَّعي الواسطي المقرئ ت (٥٩٣)، انظر «معرفه القراء»: (٢/٨٧٠) رقم (٨٢٧).

(٣) (١/٥٣٦ - ٥٣٧).

ترجمة العلامة اللغوي المحدث محمد مرتضى الزبيدي: «ومع كثرة شيوخ المترجم كثرة مهولة بالنسبة إلى مشايخه ومُعاصريه = كان غير مُكْتَفٍ بما عنده، بل دائم التطلب والأخذ، ومكاتبة من بالآفاق، حتى أني رأيتُ بخطه في كناشة ابن عبدالسلام الناصري استدعاءً كتبه لمن يلقاه ابنُ عبدالسلام المذكور (وذكر نصّه، وفيه: استجازة كل من يلقاه من الشيوخ والعلماء بتاريخ ١١٩٧).

قال (الكتاني): وإن تعجب فاعجب لهذه الهمة والحرص من هذا الحافظ العظيم الشأن، وعدم شبعه، وكثرة نهيمه، فإنه عاش بعدما كتب هذا الاستدعاء نحو الثمان سنوات.

وهذا نظير ما وجدته من كتب اسم الحافظ ابن الأبار (٦٥٨) في استدعاء مؤرخ بقريب من سنة وفاته! ومنهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا». انتهى كلام الكتاني.

أقول: ولئن عدّ الذهبي والكتاني ما وقع لهؤلاء العلماء من النهمة الشديدة، والحرص العظيم، والهمة العالية = فَلَعَمْرِي إن طلبه، والحرص عليه، والمذاكرة به في ساعة الاحتضار، ووقت النزاع لأعظم دلالة من ذلك وأوضح.

فلله تلك الهمم والعزائم!!

* * *

الفصل الثاني

حِرْص العلماء وشغفهم بالكتب؛ قراءةً وتحصيلًا

لقد أبدأ العلماء وأعادوا في بيان قيمة كتب العلم، وعظيم أثرها، وجلالة موقعها، ولهم في ذلك عبارات مشهورة نثرًا وشعرًا، نجد كثيرًا منها في مقدمة كتاب «الحيوان»^(١) للجاحظ، وفي ثانيا كتبه، وفي «تقييد العلم»، و«الجامع . . .» للخطيب، و«جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر، وفي مطاوي كتب «أدب الطلب» وكتب «التراجم والسير». ومقدمات المصنفات التي تتحدث عن (خزائن الكتب)^(٢) فلا نُعيد ما قالوه، فهو مبتذلٌ في مظانِّه؛ إلا أنني لم أشأ إخلاء هذا الكتاب من لُمعٍ منه (وهو مَظَنَّة ذلك)، فاخترتُ بضع كلماتٍ أراها من أحسنِ ما قيل:

قال الجاحظ (٢٥٥) في «الحيوان»^(٣): «من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألدَّ عنده من إنفاق عُشَّاق القيان، والمُسْتَهِتَرِينَ^(٤) بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا راضيًا، وليس ينتفع بانفاقه حتى يُؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابيِّ فرسه باللبن على عياله، وحتى يُؤمِّل في

(١) وقد أُفردت هذه المقدمة عن الكتاب من قديم، منها نسخة قديمة بخط ابن البواب، وأخرى بخط الصفدي (٧٦٤) وعُتُون لها بعناوين مختلفة، وأُفردت حديثًا وطُبِعَت.

(٢) مثل كتاب فيليب دي طرازي، وكوركيس عواد، وغيرها.

(٣) (٥٥ / ١).

(٤) المُسْتَهِتَر: المولع بالشيء المنهمك فيه.

العلم ما يؤمّل الأعرابي في فرسه».

وذكر الإمام أبو محمد بن حزم (٤٥٦) في «رسالة مراتب العلوم»^(١) دَعَائِمَ العلم، فعَدَّ منها «الاستكثارُ من الكتب، فلن يخلو كتابٌ من فائدة»^(٢) وزيادة علمٍ يجدها فيه إذا احتاجَ إليه، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذي يختصُّ به؛ فإذا لا سبيل إلى ذلك، فالكتب نِعَم الخِزانة له إذا طُلِبَ.

ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجد، وهذا خطأ ممن ذمّ الاكثار منها، ولو أخذَ برأيه، لتَلَفَت العلوم، ولجاذبهم الجهال فيها، وادَّعوا ما شاءوا!! فلولا شهادة الكتب لاستوت دعوى العالم والجاهل» اهـ.

وعُذِلَ بعضُ العلماء في كثرة شراء الكتب، فقال^(٣):

وقائلة أنفقت في الكُتُبِ ما حَوَتْ يمينك من مالٍ فقلتُ: دعيني^(٤)
لعلِّي أرى فيها كتابًا يدُلُّني لأخذِ كتابي آمِنًا بيمينِي
وفي كلِّ ما سيأتي من الأخبار والقصص لسانٌ ناطق، وبيانٌ مُشرق،

(١) ضمن «رسائل ابن حزم»: (٧٧/٤).

(٢) وهذه القاعدة (لن يخلو كتابٌ من فائدة) ذكرها ابن الجوزي - أيضًا - في «صيد الخاطر»: (ص/٤١١) وهو يُرشد الطالب قال «وليجتهد في مجالسة العلماء... وتحصيل الكتب، فلا يخلو كتابٌ من فائدة» اهـ. وانظر فلسفة عباس العقاد لهذه القاعدة في كتابه «أنا»: (ص/٨٩) وهو ترجمته لنفسه، جُمع بعد موته. وذكرها وفصل القول فيها الأستاذ محمود الطناحي في «الموجز»: (ص/٢٤-٣٥) وهو مهم.

(٣) هو سلمان بن عبد الحميد ابن الحموي الحنبلي (ت ٨٠٥) من شيوخ الحافظ ابن حجر، ذكره في «المجمع»: (١/٦٠١)، و«السحب الوابلة»: (٢/٤٠٦)، و«الجوهر المنضد» رقم ٥٣.

(٤) وقع في «الجوهر»، وحاشية السحب: «وعيني»! وهو تحريف.

شغفهم بالقراءة وتحصيل الكتب

٣٧

لقيمة الكتب ومكانتها في نفوس هؤلاء العلماء، وهي بذلك غنيّة عن أيّ تعليق.

* ولع ابن دُرَيْد (٣٢١) بالعلم والكتب

قال أبو نصر الميكالي^(١): تذاكرنا المنتزهات يوماً وابن دُرَيْد حاضر، فقال بعضهم: أنزه الأماكن غُوطَة دمشق. وقال آخرون: بل نهر الأُبلة. وقال آخرون: بل سُغْد سمرقند. وقال بعضهم: نهروان بغداد. وقال بعضهم: شِعب بَوَّان. وقال بعضهم: نوبهار بلخ.

فقال (أي ابن دريد): هذه منتزهات العيون فأين أنتم عن منتزهات القلوب؟ قلنا: وما هي يا أبا بكر؟ قال: «عيون الأخبار» للقتبي، و«الزهرة» لابن داود، و«قلق المشتاق» لابن أبي طاهر. ثم أنشأ يقول:

وَمَنْ تَكُ نَزْهَتُهُ قَيْنَةٌ وكَأْسٌ تَحْتُ وكَأْسٌ تُصَبُّ

فنزّهتُنا واستراحَتُنا تلاقي العيون ودرُس الكتب

* ولع شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨) بالمطالعة، وشغفه بالبحث

قال الحافظ ابن عبد الهادي (٧٤٤) - تلميذه - في «مختصر طبقات علماء الحديث»^(٢) - وذكر طرفاً من صفاته -: «لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تملُّ من الاشتغال، ولا تكلُّ من البحث، وقَلَّ أن يدخل في علمٍ من العلوم في بابٍ من أبوابه إلا ويُفتح له

(١) «إرشاد الأريب»: (١٣٩/١٨) لياقوت.

(٢) (٢٨٢/٤)، وانظر «العقود الدرّية»: (ص/٥) له، ونقل فيه هذا القول وأتم منه عن بعض قدماء أصحاب الشيخ.

من ذلك الباب أبواب، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حُذّاق أهله». وقال الشيخ محمد خليل الهراس^(١): «كان لابن تيمية بصر نافذ ونفس طُلعة لا تكاد تشبع من العلم، ولا تكل من البحث، ولا تروى من المطالعة، مع التوفر على ذلك وقطع النفس له وصرف الهمة نحوه، حتى إنه لم ينقطع عن البحث والتأليف طيلة حياته في الشام أو في مصر، في السجن أو في البيت، بل إنه كان يتوجّع ألماً وحسرة حينما أخرجوا الكتب والأوراق من عنده في أخريات أيامه...» اهـ.

* قراءة شيخ الإسلام وهو مريض

قال الإمام ابن القيم في «روضة المحبين»^(٢): «وحدّثني شيخنا - يعني ابن تيمية - قال: ابتدأني مرضٌ، فقال لي الطبيب: إن مُطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرّت وقويت الطبيعة فدفعت المرض؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجدُ راحةً، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا...» اهـ.

وقال ابنُ القيم أيضاً: «وأعرف من أصابه مرض من صداع وحُمى وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقةً قرأ فيه، فإذا غلبَ وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال: إن هذا لا يحلُّ لك فإنك تُعين على نفسك وتكون سبباً لِقَوْتِ مطلوبك» اهـ.

(١) «ابن تيمية السلفي»: (ص/٢٧). وانظر كتابنا «الجامع لسيرة شيخ الإسلام»:

(ص/١٨٩).

(٢) (ص/٧٠).

* قراءة ابن الجوزي (٥٩٧) (٢٠ ألف) مجلدًا وهو بعدُ في الطلب

قال ابن الجوزي عن نفسه في «صيد الخاطر»^(١): - أثناء حديثه عن المطالعة والأكثر منها -: «وإني أخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره، فكأنني وقعتُ على كنز. ولقد نظرتُ في ثبَّت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثبَّت كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبدالوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشاب - وكانت أحمالاً - وغير ذلك من كلِّ كتاب أقدر عليه.

ولو قلت: إني طالعتُ عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعدُ في الطَّلَب» اهـ.

ثمَّ ذَكَرَ ما استفاده من المطالعة.

وهذا ابنُ الجوزي - أيضًا - يوصي العالمَ وطالبَ العلم بقوله^(٢):
«ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلقات فكرك» اهـ.

* حرص ابن عقيل (٥١٣) على الوقت وشغله بالمطالعة والعلم

ذكر ابن رجب الحنبلي في «الذيل على طبقات الحنابلة»^(٣) في ترجمة ابن عقيل الحنبلي، عن ابن الجوزي أنه قال عنه: «كان دائم

(١) (ص/٥٥٧).

(٢) «صيد الخاطر»: (ص/٣١٨).

(٣) (١/١٤٥ - ١٤٦).

شغفهم بالقراءة وتحصيل الكتب

٤٠

التشاغل بالعلم، حتى إني رأيتُ بخطّه: إني لا يحلّ لي أن أضيع ساعةً من عمري، حتى إذا تعطلّ لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملتُ فكري في حال راحتي وأنا مُستطرحٌ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره. وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عَشْرِ الثمانين^(١) أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة» اهـ.

ونقل ابن رجب من «الفنون» لابن عقيل أنه قال عن نفسه: «أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سفّ الكعك وتحسيه بالماء على الخبز؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ؛ توفراً على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه» اهـ.

* إذا لم اشتغل بالعلم، ماذا أصنع؟!

ذكر الإمام المقرئ في «المقفى الكبير»^(٢) العلامة ابن صدقة الحموي (٥٩٩) أنه كان كثير الاشتغال بالعلم دائم التحصيل له. وذكر عن الحافظ المنذري أنه قال: «دخلتُ عليه يوماً وهو في سَرَبٍ تحت الأرض؛ لأجل شدة الحر، وهو يشتغل. فقلتُ له: في هذا المكان؟ وعلى هذه الحال؟!

(١) أي: العشر التي فيها الثمانين (من ٧١ إلى ٧٩).

(٢) (٣٩٣/٧ - ٣٩٤).

وقال المنذري: «إنه كان يأخذ الكتاب بالثمن اليسير ولا يزال يخدمه حتّى يصير من الأمّهات». ومثله شيخ علماء دميّاط عبدالرحمن الخضري؛ فقد أنفق سنتين في إصلاح نسخته الخطية من «البرهان» لإمام الحرمين وترتيب أوراقها ومعرفة موضع الخلل فيها وكتابة نسخة منها، انظر مقدمة «البرهان»: (ص/٨٢)، و«الدرة المضيئة»: (ص/١٧).

شخفهم بالقراءة وتحصيل الكتب

٤١

فقال : إذا لم أشتغل بالعلم ، ماذا أصنع ؟

قال المنذري : إنه وُجِدَ في تَرْكِّه محابر ثلاث ، أحدها تَسَعُ عَشْرَةَ أَرْطال ، والأخرى تسعة ، والثالثة ثمانية .

* كتبه أحب إليه من وزنها ذهباً

وفي ترجمة الحافظ أبي طاهر بن أبي الصَّقر (٤٧٦) في «المنتظم»^(١) لابن الجوزي أنه قال عنه : «كان من الجوّالين في الآفاق ، والمكثرين من شيوخ الأمصار ، وكان يقول : هذه كتبي أحب إليّ من وزنها ذهباً» اهـ .
وقد أُصِيبَ ببعضها كما ذكر الذهبي في «تاريخ الإسلام»^(٢) ، أعظم الله أجره في مصيبته بها .

* أعجوبة في حفظ الوقت والتوفّر على المطالعة

قال الحافظ السخاوي في «الضوء اللامع»^(٣) في ترجمة أحمد بن سليمان بن نصر الله البُلْقَاسِي ثم القاهري الشافعي المتوفى سنة (٨٥٢) في ريعان شبابه^(٤) : «وكان إماماً علّامة قوي الحافظة حسن الفاهمة ، مُشاركاً في فنونٍ ، طلقَ اللسان ، محبّاً في العلم والمذاكرة والمباحثة ،

(١) (٩/٩) .

(٢) وفيات (٤٧٦) ، (ص/١٧٦) .

(٣) (٣١١/١) ، و«القبس الحاوي» : (١٥٣/١) للشَّمَاع ، و«نظم العقيان» : (ص/٤٢) - (٤٣) .

(٤) ولد سنة (٨٢٤) ، وتوفي سنة (٨٥٢) وعمره (٢٨) سنة ، وهو مما فاتني ذكره في كتابي «العلماء الذين لم يتجاوزوا سنّ الأشدّ» ، وسأذكره مع غيره في طبعة لاحقة إن شاء الله تعالى .

غير مُنفك عن التحصيل، بحيث إنه كان يُطالع في مشيه، ويُقرىء القراءات في حال أكله خوفًا من ضياع وقته في غيره، أُعجوبة في هذا المعنى، لا أعلم في وقته من يُوازيه فيه، طارحًا للتكلف، كثير التواضع مع الفقراء، سهمًا^(١) على غيرهم، سريع القراءة جدًّا اهـ.

* أعرفه أكثر من (٥٠) سنة إمامًا يُطالع أو يكتب

قال السخاوي في «الضوء اللامع»^(٢) في ترجمة محمد بن أحمد ابن محمد العُمري الصَّغاني ت (٨٥٤): «كان إمامًا علامةً متقدمًا في الفقه والأصلين والعربية مشاركًا في فنون، حسن التقييد، عظيم الرغبة في المطالعة والانتقاء، بحيث بلغني عن أبي الخير بن عبد القوي أنه قال: أعرفه أزيد من خمسين سنة، وما دخلتُ إليه قط إلا ووجدته يُطالع أو يكتب» اهـ.

* كان لا ينفك من القراءة حتى وهو في الحمام

قال ابن القيم - رحمه الله - في «روضة المحبين»^(٣) - وهو يتكلم عن عشق العلم -: «وحدثني أخو شيخنا (يعني أحمد ابن تيميه) عبد الرحمن ابن تيمية، عن أبيه (عبد الحليم) قال: كان الجدُّ (أبو البركات) إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأ في هذا الكتاب وأرفع صوتك حتى أسمع» اهـ.

أقول: وهذا سندٌ كالشمس، رحم الله الجميع.

(١) في «القبس»: «شهمًا» بالمعجمة.

(٢) (٧/ ٨٤ - ٨٥)، و«الذيل التام»: (٢/ ٩٨).

(٣) (ص/ ٧٠).

* كان لا يَمَلُّ من المطالعة مع مزيد السَّهر

قال السخاوي في «الضوء اللامع»^(١) في ترجمة أحمد بن علي ابن إبراهيم الهيتي الشافعي ت (٨٥٣): «برع في الفقه وكثُر استحضارُه له، بل وللکثیر من «شرح مسلم» للنووي؛ لإدمان نظره فيه... وكان لا يملّ من المطالعة والاشتغال، مع الخير والدين والتواضع، والجد المَحْض، والتقلُّل الزائد، والاقتدار على مَزِيد السَّهر» اهـ.

* كان لا يُسافر إلا وأحمال الكتب معه يقرأ وينظر

● قال السخاوي في «الضوء اللامع»^(٢) في ترجمته الإمام اللغوي محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ت (٨١٧) أنه اقتنى كتبًا نفيسة (حتى سمعه بعضهم يقول): «اشتريتُ بخمسين ألف مثقالٍ ذهبًا كتبًا، وكان لا يُسافر إلا وصحبته منها عدة أحمال، ويُخرج أكثرها في كل منزلة فينظر فيها ثم يعيدها إذا ارتحل» اهـ.

● ومثله السيد صلاح بن أحمد المؤيدي اليماني ت (١٠٤٨)، قال عنه الشوكاني في «البدر الطالع»^(٣): «كان من عجائب الدهر وغرائبه؛ فإن مجموع عمره تسع وعشرون سنة، وقد فاز من كل فنٍّ بنصيبٍ وافر... وصنّف في هذا العمر القصير التصانيف المفيدة والفوائد الفريدة العديدة - وذكر عددًا منها ثم قال -: وإذا سافر أول ما تُضْرَب

(١) (٦/٢).

(٢) (٨١/١٠).

(٣) (٢٩٣/١ - ٢٩٥). وذكر الشوكاني أنّ له قصائد طنّانة يعجز أهلُ الأعمار الطويلة عن اللحاق به فيها، وأن له «ديوان شعر» كله غرر ودُرر.

خيمةُ الكتب، وإذا ضُربت دخلَ إليها، ونَشَرَ الكتبَ، والخدمُ يصلحون الخيمَ الأخرى، ولا يزال ليله جميعه ينظر في العلم، ويُحرر ويُقرّر مع سلامة ذوقه...» اهـ.

*** لا يوجد إلا وعنده كتاب ينظر فيه، وقلم يُصلح به**

قال الجَندي السكسكي في «السلوك في طبقات العلماء والملوك»^(١) في ترجمة أبي الخير بن منصور الشماخي السعدي ت (٦٨٠) - بعد ثنائه عليه: «ولم يكن له في آخر عمره نظير بجودة العلم، وضبط الكتب، بحيث لا يوجد لكتبه نظير في الضبط.

أخبرني جماعة ممن أدركه أنه كان لا يوجد إلا وعنده كتابٌ ينظر فيه، ومحبرة وأقلام يصلح بهما ما وجدَ في الكتاب... (مات سنة ٦٨٠)، بعد أن جمعت خزانته من الكتب ما لم تجمععه خزانة غيره ممن هو نظير له...» اهـ.

*** ملازمة الكتب حضراً وسفراً، وحملها على ظهورهم في رحلاتهم**
وفي هذا الباب عجائب وغرائب، فرحم الله تلك الأجساد، وأنزلها منازل الرضوان، كفاء ما عملوا، وجزاء ما صبروا.

● ذكر الذهبي في «تذكرة الحفاظ»^(٢) عن ابن طاهر المقدسي أنه قال: بُلْتُ الدم في طلب الحديث مرتين؛ مرّةً ببغداد، ومرّةً بمكة. كنتُ أمشي حافياً في الحرّ فلحقني ذلك، وما ركبتُ دابةً قط في طلب

(١) (٢/٣٠).

(٢) (٤/١٢٤٣).

شغفهم بالقراءة وتحصيل الكتب

٤٥

الحديث، وكنت أحمل كتيبي على ظهري، وما سألتُ في حال الطلبِ أحداً، كنتُ أعيشُ على ما يأتي» اهـ.

● وذكر الذهبي - أيضاً - في «التذكرة»^(١) عن الدغولي أنه قال: «أربعُ مجلِّداتٍ لا تُفارقني سفرًا وحضرًا؛ كتاب المُزني، وكتاب العين، والتاريخ للبخاري، وكليلة ودمنة»^(٢).

● وفي ترجمة الإمام الحافظ الحسن بن أحمد الهَمْداني في «الذيل على طبقات الحنابلة»^(٣) عن تلميذه الحافظ عبد القادر الرُّهاوي أنه قال عنه: «وكان عفيفًا من حبِّ المال، مهينًا له، باع جميعَ ماورثه - وكان من أبناء التُّجار - فأنفقَه في طلب العلم، حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرَّات ماشيًا يحمل كتبه على ظهره» اهـ.

ولما استقرَّ في بلده - بعد عودته من رحلته - عملَ دارًا للكتب وخزانةً وقفَ جميعَ كتبه فيها، وكان قد حصَّل الأصولَ الكثيرة، والكتبَ الكبارَ الحِسانَ بالخطوط المعتمدة.

(١) (٣/٨٢٤).

(٢) كتاب المزني: هو مختصره المشهور في فقه الشافعي.

كتاب العين: هو للخليل بن أحمد الفراهيدي في اللغة، أول كتابٍ معجمي.
كتاب التاريخ: للإمام البخاري، وله ثلاثة تواريخ، ولعل المقصود هنا: الكبير، وشهرته أظهر من أن تُذكر، قال السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ»: (ص/٧٩): «لو لم يكن من شرف هذا الفن - أي التاريخ - إلا كتابة البخاري لـ «تاريخه» في الليالي المُقَمَّرة في الروضة - الشريفة - وصلاته ركعتين لكل ترجمة: لكفى» اهـ.
وكليلة ودمنة: لابن المقفَّع، في الأدب والحكايات.

(٣) (١/٣٢٦).

● وفي «المَرْقَبَةُ الْعُلْيَا»^(١) لأبي الحسن المالقي في ترجمة القاضي أحمد بن يزيد - الأموي من وَلَدِ بَقِيٍّ بن مخلد القرطبي ت (٦٢٥): أنه أَلَفَ كتابًا في الآيات المتشابهات، قيل: إنه من أحسن شيء في بابه، وكان لا يُفَارِقُهُ في سَفَرٍ ولا في حَضَرٍ.

● وذكر الحافظ الذهبي في «سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ»^(٢) في ترجمة القاضي الرَّامَهْرُمُزِي لَمَّا ذَكَرَ كتابه: «المَحَدَّثُ الْفَاصِلُ» قال: «في علوم الحديث، وما أحسنه من كتاب»^(٣)! قيل: إِنَّ السَّلَفِيَّ كان لا يَكَادُ يُفَارِقُ كُتْمَهُ - يعني في بعضِ عمره - اهـ.

● وفي «سِيرَ النُّبَلَاءِ»^(٤) - أيضًا -: «قال الحافظ يحيى بن عبد الوهاب (ابن منده): كُنْتُ مع عمي عبيد الله في طريق نَيْسابور، فلما بلغنا بئرَ مَجَنَّةَ، قال عمِّي: كُنْتُ هاهنا مرَّةً، فعرضَ لي شيخٌ جَمَّالٌ؛ فقال: كُنْتُ قافلاً من خراسان مع أبي، فلَمَّا وصلنا إلى هاهنا؛ إذا نحن بأربعين وِقْراً من الأحمال، فظننا أنها منسوج الثياب، وإذا خيمة صغيرة فيها شيخ، فإذا هو والدك، فسأله بعضُنا عن تلك الأحمال؟ فقال: هذا متاعٌ قلَّ من يرغبُ فيه في هذا الزمان، هذا حديث رسول الله ﷺ اهـ.

● وفي «طبقات الحنابلة»^(٥) لابن أبي يعلى، و«تذكرة الحفاظ»^(٦)

(١) «المَرْقَبَةُ الْعُلْيَا فيمن يستحق القضاء والفُتْيَا»: (ص/ ١١٧ - ١١٨).

(٢) (٧٣/١٦).

(٣) وقال الذهبيُّ بعدُ: وكتابه المذكور يُنبِئ عن إمامته.

(٤) (٣٧/١٧).

(٥) (١١٤/١).

(٦) (٥٢٤/٢).

شخفهم بالقراءة وتحصيل الكتب

٤٧

للذهبي في ترجمة إسحاق بن منصور الكوسج (٢٥١): «عن حسان ابن محمد قال: سمعتُ مشايخنا يذكرون: أن إسحاق بن منصور بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن تلك المسائل التي علّقها عنه. قال: فجمع إسحاق بن منصور تلك المسائل في جراب، وحملها على ظهره، وخرج راجلاً إلى بغداد وهي على ظهره. وعرض خُطوطَ أحمد عليه في كلِّ مسألة استفتاه فيها، فأقرَّ له بها ثانياً. وأُعجب أحمدُ بذلك من شأنه» اهـ.

● وذكر ياقوت في «معجم الأدباء»^(١)، والقفطي في «إنباه الرواة»^(٢) وعنه ابن خلكان في «الوفيات»^(٣) في ترجمة اللغوي ابن الخطيب التبريزي (٥٠٢) أنه حصلت له نسخة لكتاب الأزهرى (تهذيب اللغة) في عدة مجلدات لطاف، وأراد أخذها عن عالم باللغة، فذُلَّ على أبي العلاء المعرّي، فجعلها في مِخْلَافَةٍ، وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرّة - ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً - فنَفَذَ العرقُ من ظهره إليها.

وقيل: إنها ببعض الوقوف البغدادية وأن الجاهل بخبرها إذا رآها يظن أنها غريقة، وليس الذي بها إلا عَرَقٌ يحيى بن علي - رحمه الله -.

* من استغنى بمجالسة كتبه عن مخالطة الناس

● ابن المبارك

ذكر الذهبي في «السير»^(٤): «عن نعيم بن حماد قال: كان ابن المبارك

(١) (٢٠/٢٦ - ٢٨).

(٢) (٤/٢٨ - ٢٩).

(٣) (٦/١٩٢)، وانظر «الفلاكة والمفلوكون»: (ص/٧١).

(٤) (٨/٣٨٢)، وهو بنحوه في «تقييد العلم»: (ص/١٢٦)، و«تاريخ بغداد»: =

شغفهم بالقراءة وتحصيل الكتب

٤٨

يُكثر الجلوسَ في بيته، فقليل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحشُ وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه؟! اهـ.

وأُسند الخطيب في «تقييد العلم»^(١) عن ابن المبارك قوله: من أحبَّ أن يستفيد؛ فليُنظر في كتبه.

● الدُّهلي

وفي «تاريخ بغداد»^(٢): «أن يحيى بن (محمد بن يحيى) الدُّهلي قال: دخلتُ على أبي في الصيف الصائف وقتَ القائلة، وهو في بيت كتبه، وبين يديه السَّراج، وهو يُصنِّف، فقلتُ: يا أبة! هذا وقتُ الصلاة، ودُخانُ هذا السَّراج بالنهار، فلو نفَّست عن نفسك. قال: يا بُنيَّ تقولُ لي هذا وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين؟!». اهـ.

● ابن الأعرابي

ساق ابن عبد البر بسنده في «جامع بيان العلم وفضله»^(٣) أن أحمد بن محمد بن شجاع بعثَ غلامًا من غلمانِه إلى أبي عبد الله بن الأعرابي - صاحب الغريب - يسأله المجيءَ إليه، فعاد إليه الغلام، فقال: قد سألتَه ذلك، فقال لي: عندي قوم من الأعراب، فإذا قضيتُ أربي منهم أتيتُ، قال الغلام: وما رأيتُ عنده أحدًا، إلا أن بين يديه كتبًا ينظر فيها، فينظر في هذا مرَّة وفي هذا مرَّة، ثم ما شعرنا حتى جاء، فقال له

= (١٥٦/١٠)، و«الجلس الصالح»: (١٦٣/١ - ١٦٤).

(١) (ص/١٤٠).

(٢) (٤١٩/٣)، وانظر: «السير»: (٢٧٩/١٢ - ٢٨٠).

(٣) (١٢٢٧/٢ - ١٢٢٨).

شغفهم بالقراءة وتحصيل الكتب

٤٩

أبو أيوب: يا أبا عبدالله! سبحان الله العظيم، تخلّفت عنا وحرّمنا الأنس بك، ولقد قال لي الغلام: إنه ما رأى عندك أحداً، وقلت: أنا مع قوم من الأعراب، فإذا قضيتُ أربي معهم أتيتُ، فقال ابنُ الأعرابي:

لنا جُلساءُ ما نَمَلُ حديثهم ألباءُ مأمونون غيباً ومشهدا
يُفيدوننا من علمهم علمَ ما مضى وعقلاً وتأديباً ورأياً مُسدّدا
بلا فتنة تُخشى ولا سوء عِشْرةٍ ولا يُتَّقَى منهم لساناً ولا يدا
فإن قلت: أمواتٌ فلا أنتَ كاذبٌ وإن قلت: أحياءُ فلستَ مُفَنّدا

● وقيل لرجلٍ: من يُؤنِّسُكَ؟ فضربَ بيده إلى كتبه، وقال: هذه؛
فقيل: من الناسِ؟ فقال: الذين فيها^(١).

خليلي كتابي لا يعاف وصاليا وإن قلَّ لي مالٌ وولّى جماليا
كتابي عشيقتي حين لم يبقَ معشوق أغازله لو كان يدري غزاليا
كتابي جليسي لا أخاف ملاله محدّث صدقٍ لا يخاف ملاليا
كتابي بحر لا يغيض عطاؤه يُفيض عليّ المال إن غاض ماليا
كتابي دليلٌ لي على خير غايةٍ فمن ثمَّ إدلالي ومنه دلاليا
قيل: إن هذه الأبيات - وغيرها - كانت على باب خزانة الإمام أبي
بكر القفال^(٢).

(١) «تقييد العلم»: (ص/١٢٥).

(٢) «تقييد العلم»: (ص/١٢٧).

● المعافى النهرواني

وقال الإمام المعافى بن زكريا النهرواني الجريري -نسبةً إلى مذهب ابن جرير الطبري- ت (٣٩٠) في كتابه: «الجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي»^(١): «وقد كان بعض من كان له في الدنيا صيتٌ ومكانة عاتبني على ملازمة المنزل، وإغبابي زيارته، وإقلالي ما عودته من الإمام به وغشيان حضرته، فقال لي: أما تستوحش الوحدة؟ ونحو هذا من المقالة.

فقلتُ له: أنا في منزلي إذا خلوتُ من جلسٍ يقصد مجالستي، ويؤثر مساجلتي، في أحسن أنسٍ وأجمله، وأعلاه وأنبله؛ لأنني أنظر في آثار الملائكة والأنبياء، والأئمة والعلماء، وخواصّ الأعلام الحكماء، وإلى غيرهم من الخلفاء والوزراء، والملوك والعظماء، والفلاسفة والأدباء، والكتّاب والبلغاء، والرّجّاز والشعراء، وكأنني مُجالِسٌ لهم، ومستأنسٌ بهم، وغير ناءٍ عن محاضرتهم، لوقوفي على أنبائهم، ونظري فيما انتهى إليّ من حكمهم وآرائهم» اهـ.

* ما تزوّج، لم يشتغل إلا بالعبادة والمطالعة

قال الذهبي في «سير النبلاء»^(٢) في ترجمة عيسى بن أحمد اليونيني ت (٦٥٤): «لم يشتغل إلا بالعبادة والمطالعة، وما تزوج»^(٣)، بل عقد على عجوزٍ تخدمه» اهـ.

(١) (١/١٦٤).

(٢) (٢٣/٣٠٠).

(٣) لا يُفهم من هذا الدعوة إلى ترك الزواج، بل الأصل الترغيب فيه والحثّ عليه، وقد يُخرج عن هذا الأصل لعوارض مُدوّنة في أماكنها من كتب الفقه.

* إما أن ينسخ، أو يُدرّس، أو يقرأ

وفي «تبيين كذب المفتري»^(١) لابن عساكر أنه قال في ترجمة الفقيه سُليمان بن أيوب الرازي: «حُدِّثُ عنه أنه كان يُحاسب نفسه على الأنفاس، لا يدع وقتاً يمضي عليه بغير فائدة؛ إما ينسخ أو يُدرّس أو يقرأ... ولقد حدثني عنه شيخنا أبو الفرج الإسفرائيني أنه نزل يوماً إلى داره ورجع، فقال: قد قرأتُ جزءاً في طريقي».

وقال: إنه كان يُحرّك شفّتيه إلى أن يَقُطَّ القَلَمُ.

* لا لذة له في غير جَمْع الكتب وتحصيلها

جاء في «سير النبلاء»^(٢) في ترجمة المستنصر بالله أبي العاص الحكم بن عبدالرحمن الأموي، صاحب الأندلس أنه «كان جيّد السيرة، وافر الفضيلة... ذا غرامٍ بالمطالعة وتحصيل الكتب النفيسة الكثيرة

(١) (ص/٢٦٣)، و«سير النبلاء»: (١٧/٦٤٦).

والفقيه سُليمان الرازي ممن طلب العلم على كبر السن، فقد طلبه بعد سنّ الأربعين، كما ذكر ابن عساكر في كتابه السابق: (ص/٢٦٢).

ويُحفظ مثل هذا لعددٍ من العلماء، أذكر منهم: صالح بن كيسان، انظر: «تهذيب التهذيب»: (٤/٤٠٠)، والعز بن عبدالسلام، كما في «طبقات الشافعية»:

(٨/٢١٢)، وطبقات المفسرين: (١/٣٢١)، وعلي بن حمزة الكسائي النحوي،

كما في «تاريخ بغداد»: (١١/٤٠٤). وكذلك عدد من الشعراء؛ كالنابغتين الجعدي والذبياني، انظر: «الشعر والشعراء»: (ص/١٣١، ٦١) على التوالي.

(٢) (١٦/٢٣٠)، وقد وصفه الذهبي بقوله: «وكان عالماً إخبارياً، وقوراً، نسيجاً

وحده» قال الذهبي: «ومن محاسنه أنه شَدَّد في الخمر في ممالكه، وأبطله بالكلية، وأعدمه، وكان يتأدّب مع العلماء والعبّاد» اهـ.

حقّها وباطلها، بحيثُ إنها قاربت نحوًا من مئتي ألفِ سفرٍ . . .
 وكان باذلاً للذهبِ في استجلاب الكتب، ويُعطي من يتجرّ فيها
 ماشاء، حتّى ضاقت بها خزائنه، لا لذّة له في غير ذلك.
 وكان الحَكَمُ موثّقًا في نقله، قلّ أن تجد له كتابًا إلا وله فيه نظرٌ
 وفائدة، ويكتب اسمَ مؤلفه ونسبَه ومولده، ويُغرب ويُفيد» اهـ.

* الاشتغال عن النوافل باتمام مطالعة كتاب

وفي ترجمة الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد ت (٧٠٢) من كتاب
 «الطالع السعيد»^(١) للأدفوي أنه لما وصل إليه كتاب «الشرح الكبير»^(٢)
 للإمام الرافعي - وكان اشتراه بألف درهم - اشتغل بمطالعة، وصار
 يقتصر من الصلوات على الفرائض فقط^(٣).

* الانكباب على النظر والقراءة حتى في المجالس الخاصّة

قال ابنُ القاضي المكناسي في «دُرّة الحِجال»^(٤) في ترجمة محمد
 ابن عليّ بن سليمان السّطّي ت (٧٤٩): «وكان مُقبلًا على ما يَعْنيه،
 مُكبًّا على النظر والقراءة والتقيد، لا تراه أبدًا إلا على هذه الأحوال
 حتى في المجلس السلطاني . . .» اهـ.

-
- (١) (ص/ ٥٨٠)، وانظر: «جواهر العقدين في فضل الشرفين»: (١/ ١١٩).
 (٢) المسمّى: «فتح العزيز على كتاب الوجيز» للإمام أبي القاسم عبدالكريم بن
 محمد القزويني الرافعي ت (٦٢٣) في فقه الشافعية، وقد طبع كاملاً أخيراً.
 (٣) وفيه بحثٌ.
 (٤) (٢/ ١٣٥). وقال عنه: «وكان يُعتَبَر خزانة مذهب مالك، مع مشاركة تامة في
 الحديث والأصلين واللسان».

الموضوع	الصفحة
الثاني: الموازنة بين قراءة الكتب والأخذ عن الشيوخ	١١٥
تنبيهات في أخذ العلم من الكتب	١١٦
الثالث: التعرف على أنواع القراءة	١١٨
الرابع: تقييد الفوائد	١١٩
نماذج من تقييد العلماء للفوائد	١٢١
الفهارس	١٢٣
فهرس المصادر	١٢٥
فهرس الموضوعات	١٣٥